قصص



أنا في الأربعين

إيمان النجار





أنا في الأربعين

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2011/4/1577

النجّار، إيمان محمود
أنا في الأربعين ـ إيمان محمود النجّار- عمان: دار فضاءات، 2011
الواصفات: / العصر الحديث // القصص العربية /.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-279-9



الطبعة الأولى: ديسمبر 2011

أنا في الأربعين – إيمان محمود النجّار - الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 777/911431(962+)
ص.ب 20586عمان 11118 الأردن
E.mail:Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

التوزيع في تونس:
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصر II - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet @yahoo.com
Website:http://www.darfadaa.com



2 0 1 1

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إيمان محمود النجّار

أنا في الأربعين

قصص



إهداء إلى.....

أمي....

أبي....

اللذين آمنا بي قبل أن أُؤمن بنفسي...

إلى قريتي (بورين) التي لم تطأ قدماي ترابها بعد...

أمل من وسط الظلام

من تلك الغرفة المعتمة، حيث كل شيء يشي بالإهمال، فعلى أرضيتها تمدد ذلك الجسدُ بتراخٍ، لتحيط به فناجين القهوة المنثورة في كل ركن، وأقلام محطمة تدل على غضبٍ وسخط، وكرسي مهشم تحطم من كثرة ما تم ركله أثناء نوبات الغضب، وسرير متهالك يخشى صاحبه الجلوس عليه، لكي لا يستمع لصوت صريره الذي يتفجر في أرجاء الغرفة الهادئة، وسلة مهملات اكتظت بالأوراق.

أخذ صاحب الجسد يتأمل الغرفة مرة أخرى، كأنه يخشى أن يكون هنالك ما نسي تأمله، ثم تنهد وأغمض عينيه ليتذكر ذلك الطفل الذي كان يخرج كل صباح، متظاهراً بالذهاب إلى المدرسة، بينما في الحقيقة كان يذهب ليجري بين البساتين، ويملأ جيوبه بالفاكهة، ويرسم ما يشاء على كل حائط يجده أمامه، من ثمّ يدق الأبواب ليجري هارباً،

ليستمع للأصوات المؤنبة خلفها باستمتاعٍ عجيب، بعد يومٍ حافل يعود إلى منزله بفرحة غامرة، ونشوة طفولية، وأقدامٍ عارية لا تتعب.

في صغره كان كل شيء في نظره جميلاً ممتعاً، أما الآن فلا شيء سوى الملل والسخط على كل ما تحويه الدنيا، ثم عادت عيناه تتأملان الغرفة.

فتنهد قائلا:

- آه... لو استطعت التخلص من كل هذا.

حملت له العبارة فكرة مخيفة، ولكنها راقت له بشكل مدهش، ثم راح يخطط للتنفيذ. وبنشاط لم يعتده، أمسك جالون كاز، وراح يسكب محتوياته على أثاث غرفته البالي، وأشعل عود كبريت.

***

- أين أنا؟

نطق الكلمة وهو يتأمل المكان الذي هو فيه، كان مُستلقياً على ظهره والظلام يلف المكان. المكان ضيق لا يكاد يستطيع التنفس فيه، تحسست يداه الأرضية، إنها وعرةٌ بعض الشيء ورائحة الأتربة تزكم أنفاسه.

في الحقيقة كان يعلم أين هو، ولكنه حاول أن يكذب على نفسه وفشل، لأن الحقيقة كانت الشيء الوحيد الذي يسطع ضوؤه في المكان.

أحس ببعض الدموع تحاول الفرار من سجنها، فقال كمحاولة لإقناعها بالكف عن المحاولة:

- لماذا الندم والدموع الآن؟ كان علي فعل ذلك، لماذا نتمسك بالحياة إن لم تكن جديرة بأن تعاش؟ الأهل والأصدقاء تفرقوا ولم تعد تراهم، أعيش في هذه الدنيا غريباً، زمن انقلبت به الموازين، ومجتمع لا يرحم، كيف لا وقد وجدت نفسي في ساحة حرب، وأنا لا أمتلك سوى أسلحة من الخشب، وسهامٍ لا تصيب مقتلاً، فهجرت الدنيا ولم أحمل من أمتعتها سوى ذكريات، وبعض الهمسات.

خفت أن يطلبوا مني فتح الحقائب، ويقولوا لي: ممنوع تصدير الذكريات.

إذاً ماذا يأخذ المسافر إلى العزلة؟

عندها تساوت عندي كل الأحاسيس، وبات الفرح والجمال كلمات لا تجدها سوى في الأغاني، فكثرت أسبابي، ومن كثرتها لم أعد أذكرها.

لكن الدموع انهمرت لتبلل خصلات شعره لأنها تعلم أنه يكذب، تعلم أن صاحبها فقد الأمل، وفقد كل شيء معه.

"الأمل"

- آه.. كم هذه الكلمة رنانة

فجأة تناهى إلى مسامعه وقع أقدام في الأعلي، وصوت أُناس يقرؤون الفاتحة، ثم صوت بكـاء خالطتـه عبـارات المعـزين، ولكنـه قـد ميـزه بوضوح، كان صوت بكاء أمه التي كانت تبكي وتلومه على انتحاره.

آه كم هو مشتاق إليها بعد هذه السنين، كان يريد أن يصرخ قائلاً:

- أرجوكم لا تبكوا عليَّ فأنا لا أزال حياً.

وقبل أن تُفلت العبارة من بـين شـفتيه أحـس بـسخافتها، فابتلعهـا لتقف بحلقه الجاف، فأغمض عينيه وهو يشعر بالندم والألم يجثم عـلى صدره ويحطم أضلاعه.

كيف فعل هذا؟

ألم تكن الحياة يوماً في نظره جميلة وذات ألوان ساحرة.

أحبها منذ طفولته، وداعبت أحلامه، وابتسم لها، ماذا حصل ليتخلى عنها بهذا الشكل؟

لحظة عابرة في حياته دمرته، نـزوة شـدت الحيـاة منـه فأفلتهـا، لأنـه يمتلك أصابع متهالكة لا تقوى على الصمود.

شعر بها للحظة بأنها أفلتـت مـن بـين يديـه، وتحطمـت، وتنـاثرت شظاياها في الكون كله، ثم بنسمة هواء حملتها معها بعيداً، وخبا بريقها إلى الأبد.

- لماذا هجرتني أيها الأمل، لو كنت معي لما خسرت؟

عادت عيناه تتأملان الظلام، المكان مُظلم جداً، لا ترى فيه شيئا، وهو مُخيف أيضاً.

- وبعد......

حملت له العبارة مُصيبة أخرى، لم يرد طرحها، هذه الكلمة ذكرته بأن ما فعله خطيئة.

- إذاً ماذا سيحدث بعد ذلك؟ عندها أحس بألف لعنة تحوم حوله وأجراس الفضيلة تقرع في رأسه. أحس بجسده يرتعش وهو يجتر فظاعة الموقف.

لماذا تقرع هذه الأجراس بعد فوات الأوان.

على فكرة المكان هادئ لا بدّ أن المعزين قد رحلوا، لأن المكان أصبح كالمعبد الذي لا تسمع به سوى صوت أنفاسك، لكنه لم يكن يسمع سوى صوت نبضات.

إنه قلبه ينبض، تحسس صدره بمرارة وقال:

- آه أيها الصغير بجوفي، أما زلت مُصرّاً على الخفقان؟!

أغمض عينيه ليستمتع بصوته، صوته يعلو ويعلو حتى أصبح كالوحش الذي يريد الخروج من سجنه، أحس به يريد تحطيم

أضلاعه، ليفر هارباً قبل أن تحرقه جحيم الأفكار التي تسكن رأس صاحبه - وهو لا يلومه - شعر بالمرارة، حتى قلبه لا يريد أن يشاركه المصير، صوت النبضات يعلو ويعلو ويدوي في المكان، ثم أحس بصوته قد خرج من داخله ليصبح قريباً منه.

لحظة إنه الباب الذي يُدق وليس قلبه !! نظر إلى الباب بشرود، ثم نهض ليفتحه، فلم يجد أحداً خلفه، لكنه لاحظ أن أحد الأطفال قد قام بالرسم على بابه، فابتسم وأغلق الباب خلفه وقد تنبه بأنه يمسك بعود كبريت مُطفأ، ورائحة الكاز تملأ المكان، فعاودته الرغبة في تأمل المكان، الذي بدا له واسعاً مُشمساً وذا أثاثٍ جميل، عندها أدرك أن الأمل لم يهجر حياته، والجمال ليس في الأغاني فقط.

لوحات بلا ملامح

تبدو تلك الوجوه غريبة دون ملامح، تشعر بنقص هائل وأنت تتأملها.

كان هذا رأيي وأنا أتأمل المشهد الذي حولي، حجرة اكتظت باللوحات، ووجوه دون تعابير أو ملامح، وطريق طويل حوله أشجار صفراء شاحبة، تسير في وسطه طفلة لم يظهر وجهها، هذا ما كان خلف إطارات لوحاتي، ثم تأملت الحائط الذي يحملها، أحسست بأنه يقف بتأفف وضيق، كأنه محكوم عليه بحمل تفاهاتي وجنوني طوال حياته ما دام منتصباً... لوحاتي بلا ملامح لأني أردت أن أرسم تعابير عجيبة لا تشبه تعابير البشر، ولا تعبر عن أي حالة. لا تعبر عن حزن، لأنها ستكون وثيقة اعتراف بها أردت إنكاره، لا تعبر عن سعادة، لأني

لا أريد أن تناقضني تلك اللوحات بل تكون جزءاً مني، لم أرد رسم أي ملامح، لذا رسمت تلك الطفلة موليةً ظهرها لكل شيء.

ثم تسلل إلى مسامعي صوت بكاء مكتوم من الشقة التي أسفل شقتي، كنت أسمع صوت أنفاسه اللاهثة، نشيجه المكتوم، شهقاته كأنها شهقات احتضار، كنت أسمع هذا الصوت كل ليلة، مع ذلك كنت أحس بجسدي يرتعش، أنفاسي تختنق، أقاوم رغبة بالبكاء، قلبي يدوي في المكان، وبشعورٍ يحرك دمي، هكذا كنت أشعر عند سماعه، بعد لحظات تختفي كل مشاعري ويحل محلها الفضول، حتى إني في الصباح لم أكن أقاوم الركض نحو النافذة عندما كنت أسمع صوت باب شقته يفتح، كي ألقي نظرة عليه، وأستغرب حينما أرى نظراته التهكمية، وابتسامته الساخرة. تنهدت... وعدت أنظر إلى ما حولي من لوحات، ثم لم ألبث أن اقتربت منها، ورحت أتحسّسها بأصابع متشككة لأتأكد أن الحياة لم تسطُ عليها.

أحسست بأني أسمع صوت أنين، لم يكن صوت جاري.

اعتقدت أني أصبت بالجنون حينما اقتربت من صورة تلك الطفلة لأتأكد مما سمعت. حاولت أن أبحث بنظري عن وجهها، لأني توقعت أن أجدها تبكي.... صوت الأنين يعلو، أحسست بصورة

الطفلة ترتعش تحت باطن يدي، مع أني كنت أعلم أن يدي هي التي ترتعش، وصوت الأنين لا يفارق أذني، عندها أحسست بوحشٍ داخل صدري يكبر ويتمدد، والصمت يصرخ داخلي ويعلن عن وجودي... دهور مرت وأنا لا أزال أقف مكاني.

كانت تلك الطفلة لا تزال تسير، ولم تصل بعد. لم يتغير شيء.

وما زلت في داخلي أبحث عن شيء... شيء حتى لو كان وهماً وسراباً، شيء لا يصاب بمقتل، ولا يمسه العجز، ولا تنال منه السنون، شيء لا تزحزحه الأيام، ولا يدفن، ويملأ كل فراغ فيّ، كالمواكب حين تملأ شوارع المدينة، شيء عنيد لا يقبل الطيش والهفوات.

كيف تموت الآمال والروح لا تزال تنبض بالحياة؟ سؤالٌ يدفعك للبكاء على وحلٍ واقعك، لذا رحت أبكي على الأحلام التي ضاعت، وفني الذي مات، لأعيش وحيدة غريبة، عندها سمعت صوت باب شقة جاري يفتح.

اقتربت من النافذة ونظرت إليه، كانت تلك الابتسامة لا تزال تعلو وجهه، وتطفو على صفحة وجهه الهادئ وهي تموج بالصمت.

هذه المرة لم أستغرب بل قلت لنفسي:

- فليبتسم.. ألا يكفي تجهم الحياة؟

نظرت طويلاً لابتسامته، ثم نظرت إلى ما خلف تلك الإطارات وتمنيت بصدق لو كانت تحمل تلك التعابير، وتلك الابتسامة التي تجاهد اليأس والألم، شيء في داخلي يقول لي بأني وجدته، وهذا الشيء هو الحلم والسعادة، هو الفن والإبداع، هو شيء يشمل الكون، وتحمله وجوه الناس.

عندها نمت في داخلي فكرة مجنونة.

اقتربت من صورة الطفلة، ومددت يدي إلى اللوحة ممسكةً بذراعها و أنزلتها من على اللوحة لأوقفها بجوار إحدى اللوحات.

وقفت الطفلة بحياء، لا تدري كيف تُداري قدميها المتسختين بالطين، وهي تُحس بنعومة الأرضية المصقولة تحت قدميها بدل الأرض الوعرة.

شعرت بالذنب تجاهها، لكن لا بأس ببعض الخيانات الصغيرة. ثم أمسكت فرشاتي وبدأت أرسم في نهاية الطريق صورة أخرى بدل صورة الطفلة، صورة بملامح يعشقها قلبي، وبابتسامة تطابق ابتسامةً تنتظرني كل صباح تحت النافذة.

فحتى وإن كانت الطريق التي باللوحة طويلة وشاحبة، أريد أن يتربص بي الأمل في نهايتها.

مشكلات عائلية

خيم السكون، وأسدل الظلام ستاره على أحيائنا وشوارعنا، فأُضيئت في الخارج مصابيح الشوارع، لتنيرها بضوءٍ باهت.

كانت ليلة لم يعكّر صفوها سوى صوت مشاجرة شوّشت هدوء الليل، ليتعالى صوت صراخ ينبعث من أحد الطوابق السفلى، ولم تمضِ سوى دقائق، حتى كان درج العمارة قد ازدحم بالجيران الفضوليين، الذين تجمهروا ليشاهدوا ثلاث نساء يتشاجرن أمام أحد البيوت في الطابق الأول، كانت إحدى النساء الثلاث جارتنا الجديدة التي لم يمضِ على زواجها أكثر من ثلاثة أشهر، ثم استنتجت أن المرأة البدينة هي حماتها أما الثالثة ذات الأنف الطويل فكانت أخت زوجها، أما الزوج فقد كان يقف على عتبة بيته يراقب الشجار كأي جار فضولي، حيث كانت زوجته تصرخ بوجه حماتها:

- أنا حرة.. لن أبيع قطعة واحدة من ذهبي.. أنا لست رجل البيت لأنفق على ولدك وأسدد ديونه... أنا لـن أضـحي بقـرش واحـد مـن أجله.

أما الحماة:

- ستبيعين ذهبك رغماً عن أنفك... وستساعدين زوجك في سداد ديونه.

ثم بدأت مرحلة تجاذب الأيدي، والأطراف والملابس والشعر حيث تكاتفت الحماة وابنتها على زوجة ابنها، وانهالتا عليها بالضرب، والزوجة تحاول أن تحمي وجهها بذراعيها وهي تصرخ طالبةً المساعدة من زوجها، الذي أدرك في تلك اللحظة حجم الفضيحة التي زج نفسه بها، حيث وقف يحدق مذعوراً بالرؤوس التي تطل عليه من الأعلى، بينما وقف الأطفال حفاة الأقدام يفركون أعينهم من شدة النعاس، وأحد الجيران كان لا يزال يمسك بقطعة خبز بيده، وهو يلوك لقمة في فمه، حيث كان واضحاً أنه كان لا يزال يتناول عشاءه عندما بدأ الشجار، عندها أدرك الزوج أنّ مشكلاته المادية وخلافاته مع زوجته أصبحت معروضة للتداول بين جميع الجيران، عندها أخذ يتلفت حوله بيأس، محاولاً القيام بأي مبادرة لترميم رجولته التي تصدعت أمام

أعين الملأ، محاولا أن يثبت بأنه الذكر الوحيد في هذه المعمعة النسائية التي كشفت الستار عن سخافة مشكلاته بطريقة وضيعة.

فأخذ يصرخ بزوجته وهو يهز إصبعه مهدداً:

- كفى.... وإلا أقسم بأن أعيدك إلى بيت أهلك.

ولكن الزوجة المهددة بالعودة إلى بيت أهلها كانت مختفية تحت ثقل جسدي حماتها وابنتها، وصوت الشجار والصفعات جعلت صوت الزوج يضيع لأن عدم الاكتراث كان مداه، ليعود صوت صداه ضاحكاً ساخراً لغباء محاولاته.

وعندما أدرك أنه لم يستطع أن يلملم ما بقي من أسرار بيته، خلف باب بيته، أغلق الباب خلفه ليقول للجميع بأنه ليس موجوداً.

عندها صرخت إحدى الجارات بأطفالها:

- ادخلوا إلى المنزل الآن... إن التجسس على الجيران عيب.

أصابت كلمات جارتنا الجميع بصفعة ألجمت فضولهم، وأخجلتهم من أنفسهم، لأنه إن لم يكن هنالك أي تدخل منا لإنقاذ جارتنا من ذلك المأزق، فلا داعي لإحراجها أكثر من ذلك، بمراقبة ذلك الشجار، فانسحب الجميع إلى بيوتهم وأغلقوا خلفهم الأبواب ليقفوا خلفها

متتبعين لبقية تلك الفضائح، لأن التخلي عن الفضول يحتاج إلى إرادة شاهقة.

وبعدما هدأت الأصوات في الخارج، وأدرك الجميع بأن الحماة وابنتها قد غادرتا العمارة، تسلل إلى مسامعنا صوت طرقات على باب، أعقبه صوت جارتنا باكياً:

- افتح... افتح أيها المتخاذل الضعيف.

ثم صوت صرير باب يفتح ويغلق على عجل.

كانت ليلة طويلة لم ينتهِ بها العتاب والبكاء وتبادل الاتهامات بين الزوجين، حتى الساعة الثالثة صباحاً، حيث أمضيا ساعات بتبادل الاتهامات، الزوج يتهم الزوجة بتخليها عنه، وعدم وقوفها إلى جواره، ووصفها أكثر من مرة بالأنانية.

أما الزوجة فأخذت تعاير زوجها بضعفه، وقلة حيلته، وعدم توفير الحياة الكريمة لها، كان العتاب بصوت جهوري، حيث لم تفلت كلمة واحدة من آذان الجيران الذين تابعوا هذه الاتهامات وهم جالسون في بيوتهم، بشغف، وكأنهم يشاهدون مباراة بين لاعبين محترفين يجيد كل واحد منهما صد ضربات خصمه، ويعيد توجيه الضربات إلى مواطن ضعف الآخر، فكل اتهام يرد عليه باتهام آخر.

في الصباح كانت جارتنا تقف عند مدخل العمارة، تنتظر (تكسي) ظننت للحظة بأنها ذاهبة إلى منزل أهلها، ولكني عندما رأيت يديها اللتين تتشبثان بحقيبة يدها الصغيرة فقط، أدركت بأنها ذاهبة إلى عملها فقط، قابلتني بابتسامة لطيفة وهي تقول:

- صباح الخير.

تجمد لساني عن رد التحية وأنا أحدق بعينيها المتورمتين من البكاء، وآثار الكدمات على وجنتيها، وآثار خدوش واضحة فوق حاجبها الأيمن مما يؤكد تعرضها لمشاجرة نسائية.

فرددت متلعثمة:

- ص.. صباح النور.

حيث كانت تنظر إليّ بثبات، لا خجل ولا انكسار في عينيها، ولم تحاول حتى أن تخفي آثار الكدمات تحت طبقة من المكياج حيث كان كل شيء في هيئتها من حيث ابتسامتها، ونظراتها الواثقة، وكدماتها التي لم تحاول إخفاءَها تقول:

- لا يهمني حتى ولو عرفتم جميع مشكلاتي.

نزلت بعيني قليلاً عن وجهها لألمح قلادتها الذهبية التي يبرز معظمها من تحت ياقة قميصها، فأدركت بأنها انتصرت.

أنا في الأربعين

أقبل الصباح، وبدأ الضجيج يدبُ في دُروبِ المدينة، عندها وبأقـدامٍ خاملة جرت نفسها أمام المرآة لتتفحص هيئتها..

شهقت متفاجئـة، وجحظـت عيناهـا مـن هـول المفاجئـة، ومـا أن تمالكت نفسها حتى هزت رأسها غير مُصدقة

- تجاعيد حول عيني.. الإرهاق.. يا إلهي...

وبأناملها بدأت تشدُ أطراف وجهها لتمدد التجاعيد في محاولةٍ منهـا لإخفائها، فمرةً تشد وجههـا مـن فـوق الحاجـب، ومـرة مـن طـرف عينيها، وهي تزمجر وتتمتم بعبـارات كثـيرة عـن الليلـة الماضـية التـي سهرتها وهي تعمل، والإرهاق الذي التصق بوجهها. ثم صمتت فجأة وبدأت تضحك بمرارة، فإلى متى ستبقى تستيقظ كـل صـباح لتـدعي أمام المرآة بأن تلك التجاعيد ظهرت بين ليلة وضحاها؟

تحسست المرآة وهي تتساءل:

- منذ متى أصبح ذلك السطح المصقول هاجسي الصباحي؟!

وهوسي اليومي؟!

ثم نظرت بتمعن إلى تجاعيد وجهها بعدم رضا وكآبة أرخت ظلالها على خطوط وتعاريج وجهها، فمدت يدها إلى أحد الأدراج لتخرج من داخله، علباً ومساحيق وألوانًا وفراشي بأحجام مختلفة، وعدة أقلام لتبدأ رسم لوحتها اليومية، وبأنامل تمرست هذا العمل منذ سنين، أخذت بطلاء وجهها بطبقةٍ أولية، ثم بطبقةٍ أساسية، لتثبتها بعد ذلك ببعض أنواع المساحيق، وبعد ذلك، بدأت مرحلة رسم الشفاه والعينين، وبريشةٍ متوسطة الحجم أخذت تضع بعض اللون الوردي على وجنتيها، لتعطيها نضارة أكثر، ولتبدو أصغر سناً.

ثم حدقت بوجهها... بالرغم من الوقت الذي بددته أمام المرآة، وبالرغم من الجهد الذي بذلته في وضع المساحيق، لم تشعر بأي رضا، ولم تملأ أي فراغ في نفسها، ولم يزدها ذلك حباً لنفسها، إنما تفعل ذلك كل صباح، ومنذ سنين، لأن هذا أفضل ما تستطيع الحصول عليه دون اقتناع، ثم أخذت نفساً عميقاً وهي تتفقد هندامها أمام المرآة.

حذاؤها.... طقطقة كعبه لم تعد تطـرب رجـلاً مهـما دقـت الأرض بكعبيها.

أساورها.... رنتها لا تهز قلب أحد.

تسريحتها المنشاة.... مثبتة بمشبك حديدي، لذا لا تتمايل مـع إيقـاع حركتها، ولا تحرك مشاعر أحد.

تفاصيل أنوثتها.... لا يرتبك أمامها رجل.

ثم نظرة أخيرة على ملامح وجهها قبل أن تخرج إلى عملها.

***

عند الناصية الأخرى من الشارع، كان هنالك لوحةٌ إعلانيةِ بحجـمِ الحائط تحتلها فتاة ذات ابتسامةٍ واسعة، وبشرةٍ صافية مـشرقة، وبـشعر أشقر مستفز الصفرة، وقد رفعت أحد حاجبيها الرفيعين بثقـة، وهـي تحمل في يدها مستحضراً تجميليّاً، وقد كتـب في أسـفل اللوحـة بخـطٍ عريض، ولونٍ أحمر مقيت، ((أنا في الأربعين))...

حدقت في العبارة بدهـشة، ثـم هـزت رأسـها لتـنفض عنهـا ذلـك الانفعال، ثم أكملت سيرها إلى عملها وهي تتمتم ساخطة:

- في الأربعين !!....كذب.. إذا كانـت في الأربعـين فـأين تجاعيـد وجهها؟... وأين الهالات حول عينيها؟... هؤلاء أصحاب شركـات

التجميل كـاذبون وملاعـين، لم أسـتخدم مستحـضراً تجميليـاً واحـداً وحصلت من خِلاله على أي نتيجة.

ثم رفعت ياقة معطفها في محاولة منهـا لاتقـاء الـبرد الـذي يكتنـف المكان، والذي تشبع بالرطوبة التي توحي بقرب هطول المطر.

عندما وصلت إلى مكان عملها صعدت الـدرج المـؤدي إلى مكتبهـا وهي تتقافز عليه مسرعةً، متجاهلةً بأنها لم تعد تستطيع صـعود الـدرج برشاقة دون أن تؤلم كاحليها، وعنـدما وصـلت إلى مكتبهـا تـسلل إلى مسمعها صوت ضحكةٍ أنثوية، ففتحت البـاب بـبطء اسـتعداداً لأي مفاجئة..

عندها لمحت موظفةً جديدة، كانـت تبـدو في بدايـة العـشرين مـن عمرها، وقد تركت شعرها الطويل المجعد ينساب بحرية على كتفيها، وقد تجمهر الموظفون حولها للتعرف إليها وشرح سير العمل لها.

لفحتها نار الغيرة... ومن منا لا يعرف الغيرة.... فهي شعورٌ قاتل، تشعر بالقلب يتفتت غضباً لما يملأ النفس من قهر، عندما ترى غـيرك يمتلك ما أدميت إرادتك للحصول عليه.

إن مجرد وقوع ناظريك على ما يمتلكه الآخر يستفز الحرمان لـديك، ويذكرك بإلحاح برغباتك، ولا رغبة لديها سوى في... نظرة.

يُجن القلب ليحظى بنظرة ويتوق إليها، تتسكع في مساحة الوجه.. دافئة.. حنونة.. مهتمة.. متفحصة.. تسبر أغوار اللهفة لتشعرك بأنك لست سوى أنثى.

ولكن كم بات الحلم بتلك النظرة متواضعاً وخجلاً، أمام تلك العيون التي راحت تحاصر تلك الوافدة الجديدة باهتمامٍ ذكوري.

حتى إن الحضور في وجودها باهت، يضاهي الغياب.

لذا وبعداءٍ لا مبرر له، رمقتها بنظرة نارية قبل أن تتوجه إلى مكتبها وتصفق الباب خلفها.

ثم حل صمت مطبق وثقيل...

تسلل إلى مسامعها صوت أحد الموظفين يهمس للوافدة الجديدة:

- لماذا لا تذهبين وتعرفينها بنفسك؟

أجابت الوافدة الجديدة بدلال:

- لا أعلم لماذا أشعر بأنها لا تحبني، وربما تكرهني... ألم ترَ أنها لم تبتسم لي حتى؟!

فأجاب أحد الموظفين ضاحكاً:

- ربما لم تبتسم لكِ لأنها تخشى على القناع الذي تصنعه كل يوم من مساحيق التجميل بأن يتشقق عن وجهها.

عندها علت ضحكات الموظفين.

جفلت للحظة وهي تستمع لصخب ضحكاتهم، وقد شعرت بضحكاتهم كثعبان يلتف حول قلبها وروحها.

يا إلهي... من أين جاؤوا بتلك الرصاصة التي أطلقوها لتقتل شعوري بالود نحوهم.

كيف لهم أن يوجعوا القلب بازدرائهم لي؟

فإذا بالمهانة والصدمة يعتصران طعماً مراً في حلقها، والألم على شكل وخزات، بل طعنات، ويتعثر التنفس حتى يصبح شهقات، فغطت وجهها بكفيها لتغرقهما الدموع وتنساب على جيدها دافئةً ذات لون رصاصي، لتتساقط على الأوراق البيضاء الموضوعة أمامها.

عندها حدقت بذعر إلى كفيها اللتين التصقت بهما فتات لوحتها الصباحية، فأسرعت تخرج من حقيبتها مرآة لتلصقها بوجهها، فراعها أن ترى صورة امرأة أخرى غير التي ودعتها بمرآة منزلها، حيث كانت تتربص بها امرأة تجاوزت الأربعين من عمرها، سال الكحل من عينيها، واختلط باللون الوردي على وجنتيها، صانعاً لوناً كئيباً ترسب

في ثنايا تجاعيد وجهها، وفي غمرة فوضى مشاعرها تناولت حقيبة يدها وجرت خارج مكتبها هاربةً من نفسها ومن خجلها، ومن جو ذلك المكتب الذي يلفه التواطؤ والنفاق الزائف، وهرباً من حقيقة أنها تجاوزت الأربعين منذ زمن، ومن تلك التجاعيد التي لم تطرق باب العمر واستباحت مساحة وجهها، لتجد نفسها تقف في منتصف الشارع وهي ترتجف برداً، وقد ابتلت ثيابها من شدة المطر الذي راح يهطل في الخارج.

عندها رفعت وجهها إلى السماء لتسمح لقطرات المطر بأن تتساقط على وجهها.. سريعاً.. متتابعةً.. في إيقاع منتظم.. منذ زمن لم تترك وجهها يستكين تحت وطأة سحر تلك القطرات، فقد كان دوماً خوفها على مساحيق التجميل والرسم الدقيق لملامح وجهها أكبر من عشقها لقطرات المطر.

لكن الآن لا شيء لتخاف عليه، فلقد سقط القناع عن وجهها ولم يعد مهماً إنقاذ ما بقي من لوحتها اليومية، لأنها تعلم حقيقتها، وتعلم بأنهم قد أجبروها على لعب دور يصغرها بسنوات من خلال قناع هزلي، وهم وحدهم كانوا يعلمون بأن المسرحية كانت كوميديّة، وهي اضطرت لقبول الدور بذلك القناع.

لأن الوجه لم يعد يعكس جمال روحها.

ولا يثبت بأنها ما زالت زهرة ندية.

فهم أشاحوا بوجوههم عن وجهها ولم يروا القلب الذي ينبض بعفوية.

فلملمت بعضاً من خصال شعرها التي التصقت بوجهها المبتل، بعد أن أفلتت من مشبكها الحديدي، وسارت..خطوه.. خطوتين.. ثم تسمرت باقي الخطوات لتثبتها أمام تلك اللوحة الإعلانية... ولكن فتاة الإعلان اختفت، ولم يتبقّ منها سوى عينين ذاب بهما لون مقلتيها الزرقاء، واختلط بسواد جفنيها بفعل الأمطار، أما شعرها الأشقر فقد بهت لونه، حتى كاد يختفي بعد أن سطت عليه بعض السيول الصغيرة، التي سالت على كافة مساحات وجهها جارفةً معها إشراقة صباها، وزهو نضارتها، أما الوجه، فقد تجعد ورقه فوق الجبين، وتحت العينين، وتقشر من أطرافه، ليظهر من تحته لون الجدار الكئيب.. . . بينما لا تزال هي متمسكةً بمستحضرها التجميلي، وفي أسفل اللوحة لا تزال العبارة مقروءة بالرغم مما حل بها من تلف.

عندها دنت من اللوحة وهمست بتعاطف:

- لا عليكِ...... أنا أيضاً في الأربعين.

مجرد نقطة دم

من دكانٍ صغير، حيث كل شيء يشبهني، برفوفه الخشبية القديمة التي هي من عمري، حيث تكدست فوقها البضائع بعشوائية، بالرغم من صغر الدكان إلا أنك تجد فيه أشياء لم تكن لتخطر على بالك، وتتفاجأ لوجودها في الزوايا المهملة،.. مثلي تماماً لطالما تفاجأت من نفسي لمشاعر ومبادئ لم أظن يوماً أنّها ستكون قابعةً في ثنايا الروح.

وبالرغم من أني لم أحاول يوماً ترتيب تلك البضائع، أو تصنيفها، لم أتخبط يوماً في دكاني، إنما تعثر يدي على ضالتها دون جهد.

كما عثرت قدماي على طريقها في دروب الحياة ولم تته يوماً.

وكحال كل ما في الدكان، كان تلفازي قديماً مشوشاً، بالرغم من ذلك كنت أرى من خلاله الحقائق واضحة، لأن الحقيقة لا تحتاج

لشفافية الصورة، فبتلك الشاشة المشوشة كنت أرى الفجائع تتربص بنا.

حصار... قنابل مضيئة.. أعمدة من الدخان تتلوى في الشوارع والبيوت... اعتقالات.. جثث على الأرصفة تنتظر من يتعرف عليها... بيانات.. خُطب.. استنكار عربي..

وبركة دم تعلو للركب..

سنوافيكم بتفاصيل أخرى..

غزة تحت النار.

صمت.

فوجئت بجاري أبي محمد يجلب الكرسي الخشبي الذي بجوار الباب ليضعه بجواري، ويجلس دون استئذان.

كان رجلاً متطفلاً لحوحاً كثير الكلام، ولم أرتح له يوماً، حيث راح يمطرني بأسئلته

- هل أوقفوا إطلاق الصواريخ؟
- لا
- لعنة الله عليهم.. إنهم لا يسايرون ولو بهدنة.
- هل فتحوا المعبر؟

- لا

في داخلي وددت لو صرخت:

- تباً لمعبر لا يفتح ولا يصغي للوعة الجياع، وأنين الجرحى.

ثم عادت أسئلته تطاردني

- ما الذي استجد إذاً؟

- نددنا

- فقط؟!!!

- واستنكرنا أيضاً.

قلتها ونكست رأسي لانتمائنا لعصر الاستنكار، والانكسار

ثم راح أبو محمد يلوح بذراعه هاتفاً بسخط:

- إننا لا نبرع سوى بالخطب والبيانات، علينا أن نفعل شيئاً... علينا أن نتحرك

قالها واسترخى في مقعده.

كنا مجرد براكين تتقد وتغلي، ولكن لا تفور ولا تقذف لهيباً.

ثم مد بعنقه إلى الأمام ليحاول قراءة الأرقام التي على يسار الشاشة وهو يتساءل

- ترى كم أصبح عدد الشهداء فنظارتي ليست معي؟

(كم)... كم أثار جنوني هذا السؤال فلقد ألقاه بنفس البساطة التي يسأل بها عن نتيجة مباراة، أو عن مقدار غلتي في ذلك اليوم، أو عن أعمار بعض الفتيات التي يدخلن للدكان أثناء وجوده.

كم؟....... ينطقها بكل سلاسة وسهولة دون غصة، أو حتى وخزة ضمير، لأن تلك الأرقام التي على يسار الشاشة هم أهله... ووطنه.. وأصله.

كنت رجلاً يجن لإلحاح ذبابة رغم ضآلتها، فكيف إذا كان الإلحاح بحجم بشري؟

لذا أقفلت التلفاز بحنق، وأخبرته بأن لدي عملاً عليّ إنجازه.

رغم عصبيتي في محاولتي لدفعه للمغادرة، إلا أنه لم يجد في الأمر أي إهانة، بل وعدني بأنه سيأتي غداً لنستكمل حديثنا.

وغادر.

لم يكد أبو محمد يختفي عن ناظري حتى وجدت أحد الزبائن على عتبة الدكان بعينيه الضيقتين اللتين تتحركان في كل مكان، فوق الرفوف، وعلى الطاولة، وداخل الثلاجة، كان يطمئن إلى وجود حاجاته قبل طلبها، ثم يبدأ بتحريك يديه بعصبية مشيراً لي فوق الرفوف طالباً حاجاته بصوته الرفيع المتقطع.

كانت عصبيته تنتقل إليّ بتلقائية، ومما زاد من تلك العصبية، تـذمره، وكثرة شكواه

اللبن ليس طازجاً

حجم البيض صغير

حلوى النعناع التي يفضلها أبناؤه نفدت.

عندها صارحته بأن كثرة شكواه تستفزني، فكيف يقف عنـد حجـم بيضة بينما إخواننا في غزة بلا كسرة خبز؟!

وكيف تهلع لمجرد أن حلوى النعناع التي يفضلها أبناؤك قد نفذت، بينما أطفال غزة باتوا تحت الأنقاض؟!

كيف يتحدث عن ترف، وكماليات دون أن يخجل من حرمانهم؟!

عندها هز كتفيه بلا مبالاةٍ واقترب من أذني هامساً:

- لا تقلق عليهم.

ثم خفض صوته أكثر، هامساً وهو يرفع حاجبيـه حتـى بـدا صـوته كالفحيح:

- لديهم أنفاق.

ثم حمل حاجياته، وغادر الدكان مسرعاً.

لم أكن لأستوعب ذلك المنطق الذي يجعلنا نتغافل عن الانكسار، والفجائع، بل ونراهن على الصمود، بينما حقيقة كنا نراهن على كبريائهم الذي يفضح تراخينا.

ففي البداية عندما ترى دماءهم تسيل يانعةً، تكون لك أهداف بعيدة الإنجاز، وربما مستحيلة، ثم تبرد وتتخثر مثل دمائِهم، إلى أن تصبح مجرد محاولات هشة لإنعاش إرادتك.

ولكني لن أرزح تحت الصمت وفي داخلي ضجيج للنخوة.

لأن الصمت تواطؤ.

لأن الصمت جريمة.

أغلقت الدكان وتوجهت للمنزل، في طريق العودة تنبهت إلى تجمهر بعض الناس أمام بوابة إحدى المدارس، بينما اصطف بعضهم الآخر في ساحة المدرسة، عندها اقتربت منهم مُتسائلاً، فشرح لي بعضهم بأنهم يتبرعون بالدم لجرحى غزة.

لا أعلم كيف نبضت العزيمة داخل جسدي الذي راح يزاحم فتوة الشباب.

***

رمقت كيس الدم بفرحة، وسألت الطبيب بلهفة:

- هل حقاً سيصل إلى جرحى غزة؟

- إن شاء الله يا حاج.

- ومتى يصل؟

- الله كريم يا حاج.

- هل سيصل بعد يومين؟

- أتمنى ذلك.

شعرت بضجر الطبيب من إلحاحي فخجلت من ذلك.

ربما كثرة جلوسي مع أبي محمد جعلتني آخذ بعض طباعه، أو ربما هي الفرحة لمجرد أنك فعلت شيئاً، وبأنك لست متفرجاً بين جماهير صامتة.

لأن الصمت تواطؤ.

لأن الصمت جريمة.

***

فتحت باب المنزل متحمساً، وألقيت التحية بمودة، ولكن زوجتي لم تأتِ مُرحبة بي كالعادة، فقد باتت تتجنبني هذه الأيام، فلقد أصبحت

شخصاً عصبياً متحفزاً للشجار، ولكني لم أبالِ بذلك، إذ توجهت إلى التلفاز مباشرةً، وقلبت محطاته إلى أن توقفت عند نشرة الأخبار.

انفجارات....استهداف للمدنيين... استخدام أسلحة محظورة دولياً... وبركة دم وصلت للركب.. ونقل مباشر من أمام إحدى المستشفيات.

حدقت مذعوراً في المشهد حيث يجري الأطباء جارين أمامهم نقالاتٍ لمصابين يتلوّون ألماً، بينما تنزف جراحهم دماء غزيرة، ومحاولات يائسة لإيقاف النزيف، وملابس تعتصر دماً.

أمام ذلك المشهد تذكرت كيس الدم الذي تبرعت به، عندها بدا لي صغيراً جداً.

بل اعتبرته مجرد قطرة دم أمام بركة الدم التي تجاوزت الركب.

الدّية

غُرباء تحلقوا حولي...

كلماتهم لا تؤنسني....

ثيابهم السوداء لا تعنيني...

حزنهم لا يواسيني....

غيابه يلغي كل حضورٍ من حولي.. فعمرٌ طاعنٌ من الوحدة ينتظرني.

فأمام هول فجيعتي، وكبر مقتي، وتعالي قامة الحُزن لدي، صغروا وتلاشوا من حولي.

تُحيط بي عبارات المواساة، والعيون المتعاطفة. كلهم يعلمون عظم الحب الذي أكنه له في قلبي، فهو ولدي الوحيد.

فمنذ أن طرقت الفجيعة بابي لتخبرني بأن رصاصة أخطأت جميع الصدور، وحارت باسم ضحيتها، اصطفت ولدي عيسى من بين جموع ذلك الحفل.

تولول أرملته بجواري:

- لعنة الله عليهم... ألا يكفون عن عادة إطلاق النار في الأعراس

يُطرق الباب ليدخل منه الرجال بصمت، وكآبة.

أحدق مذعورة ببقع الطين التي تغطي ثيابهم، لتذكرني من أين أتوا.

يمد أحدهم إلي بمغلف ورقي أنيق، ويقول بصوت قوي:

- الله يرحمه... كان رجل البيت، والمعيل الوحيد لكِ.

أصرخ مصححة عبارته والكلمات تتلوى ألماً على شفتيّ:

- لا يزال في نظري طفلاً لم يكبر بعد.

ولكنه يكمل حديثه بنفس الصوت القوي، دون أن تهزه أحزاني إنما تهز المغلف الذي في يده.

- نحن لا نريدك أن تحتاجي أحداً بعد عيسى -الله يرحمه- فكلنا نعلم وضعك المادي، ونعلم أن له أرملة وطفلاً، فلقد كان شقيق العروس فرحاً بزواج أخته وأطلق عدة عيارات نارية، وثم....

يبتر عبارته، ويضع أمامي المغلف على الطاولة، ويستكمل جُملته الأليمة

- هذه دية عيسى.

أنتفض في وجوههم صارخة:

- كان الأغلى، والأغلى لا يُباع وليس له ثمن، كيف قررتم مصيري بعده وحددتم الثمن؟ ترى كم كان يساوي في سوق الفجيعة؟

فأمام خنوعهم أنا رافضةٌ متمردة، وفي القلب عصيانٌ شرس،

يحثني أحدهم على تقبل الأمر وهو يزيل بقعة طين علقت على سترته:

- حاولي أن تتقبلي الأمر.. لقد أخذ نصيبه في الدنيا.

فأحدق ببقع الطين التي على ثيابهم... ذلك هو مصيرنا فلسنا سوى أطفال التراب ودمى من صلصال، وعندما تتململ الروح داخلنا، ويفارقنا وهج الحياة، نعود مجرد بقع طين على ثياب رجال أنهوا مهمتهم على عجل، وتركوا أجمل سنيّ العمر، وبهجة الدنيا، وحلمي الندي، تحت طيات التراب، وجاءوا مسرعين دون ندمٍ أو خجل، ليهينوا حزني ويهينوا ذكراه.

فأصرخ بوجدانهم:

- دعوني وشأني.

فينسحبون من أمامي كما أتوا بصمت وكآبة، مخلفين خلفهم ذلك المغلف.

لم أكن أدرك بعد تلك المساحات الشاسعة للوحدة، والتي لا يؤثثها سوى الحنين إليه.

لأول مرة منذ وفاته يخلو البيت إلا من حزني، ومن ذكراه، ومن أرملةٍ لا يعرف نحيبها ليلاً من نهار.

ولكنني في الأيام التالية أخذت أتعثر بها عند كل باب، وفي الممر.

تنظر إلي بعينين ثابتتين، لا روح فيهما ولا حياة، وهي تهز الطفل بين ذراعيها بعصبية.

فخلف شفتيها المزمومة كلام لم يحن وقت قذفه على مسامعي، تمنيت في سري أن تلتزم صمتها، ولكن بعد أيام أخذت أسمع صوتها الغاضب في المطبخ.

- لقد نفذ الحليب.... اللعنة ينفذ بسرعة، وسعره يتزايد.

وفي غرفتها:

- لا تبكِ يا صغيري أعرف أنك مريض، ولكن أجرة الطبيب لا طاقة لي بها.

وعلى طاولة الطعام:

- لقد أراد عيسى أن يصبح ولده مهندساً عندما يكبر، ولكن كيف لي بنفقات الجامعة؟

أخذت أسئلتها تحاصرني، وشكواها تُطاردني، وبدأ سؤالها الذي أخفته خلف باقي الأسئلة يشرئب بعنقه.

- ماذا سنفعل بدية عيسى؟

عندها كُنت حاسمة، وقاطعة:

- نتبرع بها.

عندها أصبحت أكثر تنمراً وإلحاحاً، وعيناها أكثر تحدياً.

- تلك اللعينة... إن مجرد التفكير بذلك المال خيانةٌ لذكراه.

كيف ستنفق قرشاً واحداً من مالٍ تفوح منه رائحة دم عيسى؟!

وكيف ستشتري به طعاماً لا يشبع جوعي لضمه؟!

وملابس لن تدفئ صقيع وحدة الأيام بعده؟!

ولكني لم أعد أمتلك الصد وهي بالشكوى تجود، وتُمعن في إيلامي.

عندها أدركت أن الحزن قد يصبح غضباً وحقداً، ففكرت بطردها ولكن يعزُّ علي الصغير، وماذا سيقول الناس؟

ولكنّ للغضب أمواجاً تحطم على شطآنها أي تسامح.

لذا قررت أن أواجهها وبأن أكون صلبة، ولن ألين.

فوجدت نفسي على عتبة بابها الذي تركت نصفه مشرعاً.

كانت راكعةً على الأرض، وبين ذراعيها طفلها الذي لفته بأحد قمصان عيسى. حيث أحاطته بيدها اليُسرى، وباليد الأخرى تشبثت بياقة القميص التي انكمشت في قبضتها حيث راحت تشمه بحسرة باحثة عن رائحة قد تكون قد اختزنت في ثناياه.

تأملت الطفل الذي انحشر بين ثنايا جسدها الذي راح يعلو ويهبط فوقه مع شهقاتها.

لم أتوقع يوماً بعد وفاة عيسى، أن أشعر بالأمومة تستيقظ داخل حواسي، وبنورٍ داخل صدري يسطع مبدداً ظلمة مخاوفي من ندمٍ سينبش مخالبه في أيامي إن فتحت ذلك المغلف الذي سيفشي بأي ثمن قد بعت الأغلى.

ولكنني أدركت لدى رؤية حزنها على عيسى، وخوفها على ذلك الصغير، بأن خلف ذلك الوجه الجامد، والكلام الجارح، امرأة ضيعت الأمان، فهي لم تعد قوية.

عندها شعرت بالندم.

كيف قسوت عليها؟؟

فالآن أستطيع أن أشعر بخوفها، وألاحظ توترها، وبأن ليس لهما سواي، وليس لي غيرهما.

في اليوم التالي كان ذلك المغلف الكئيب، بلونه الجنائزي، في مهد الصغير، ففي سماء قلبي نجمةٌ أضاءت بالأمل، لعصفورٍ آخر سيعشش على نوافذ الروح.

لحظة تمرد

حدقتُ في اتساع حدقتي عينيها، بؤبؤ عينيها الجامد مصابيح إنارة تُسلط على جانٍ يحاول الفرار بفعلته.

أخذتُ نفساً عميقاً قبل أن أواجهها بصوتٍ حاولت أن أجعله قوياً خالياً من الندم، فإذا به يخرج ضعيفاً مُتخاذلاً راجياً

- لقد فعلت هذا، لأني أردت هذا!

ملامح وجهها تتغير وتأخذ شكلاً آخر للصدمة، لم أرها في حياتي بهذا الغضب.

بصوت مبحوح همست:

- أمي....

نشبت أظافرها في ذراعي، وهزتني صارخة.

- كيف تجرأتِ؟

ثم قبضت على شعري بكلتا يديها تشده صارخة:

- من سمح لكِ بقصه.... أتظنين أنك بقصة الصبيان هذه ستصبحين صبياً لنعطيك حريتك لتتمادي....

ولكن أصابعها أفلتت من بين خصال شعري، فقبضتها لم تعتد نهايات شعري القصيرة.

عندها حدقت في قبضتها التي طاشت في الهواء.

ففي تلك اللحظة أدركت أكثر حقيقة ما فعلت، مما زاد من سخطها عليّ فجعلها تهوي بقبضتها على وجهي بصفعةٍ أوقعتني أرضاً، لأنكمش مذعورة بجوار السرير.

صوتها يهدر غاضباً:

- كيف تجرأتِ... كيف.. كيف؟؟ سيقتلك والدكِ إذا رآكِ في هيئة الصبيان هذه.

تهديدها يستفز الخوف داخلي أكثر، فأكثر.

يعود صوتها يصم أذنيّ بنفس السؤال:

- كيف تجرأتِ؟؟

من بين الدموع والشهقات التي تبتّر عباراتي، همست بكلماتٍ تُعتصر في حلقي:

- لأني أريد أن أشبه نفسي... أريد أن أنظر في المرآة فأعلم بأني أنا.. فتلك الجدائل لم تكن سوى حبال توثق قيدي.

حدقت فيّ بدهشة، وهي تتمتم غير مُصدقة:

- لقد جُننتِ.

هتفت بما يُكنه القلب من رفض:

- ولِمَ لا ترين السحر في جنـوني، ولِمَ تـستخفين بعـذري، فبـشعري القصير هذا أعيش أقصى حالات تمردي.

بقيت واقفةً في مكانها وهي ترمقني بنفس النظرة، فلقد كان عنـادي يستنزف صبرها.

فجأة.

علا صوت والدي في غرفة المعيشة.

انخلعت أبواب قلبي أمام صاعقة صوته التي أصابت أمي بالـشلل، حيث شحب وجهها، وزاغت عيناها.

لم أكن أدرك بعد ذلك الشعور الذي يفوق الخوف بانهيـارك أمامـه، أكان رعباً، أم ذعراً، لا أدري، ولكني وجدت أمي مُتصلبةً في وقفتهـا، وعيناها تدمع ضياعاً، بين جنوني وإرادتي التي لم تعد تهـدأ ولا تُقمـع، وتسلط أبي الذي لا يرحم.

أمام دمعتها كرهت نفسي.... وخجلت

كيف زجرتها في ذلك المأزق؟!

وكيف لم أُبالِ بمهابة امرأة من جيلها، ولم أرحمها من غضب والـدي الذي يغلي في عروقه.

كيف تتنصل هي مما فعلتُ أنا؟

عندها أسرعت والدتي بالخروج إلى الـصالة لتـستقبل والـدي الـذي عاد لتوه من العمل، ولكي لا تشعره بأن خلف جـدران قوقعتـه كائنـاً يتوق للحياة ويمقت العزلة.

تسلل إليّ صوت والدتي الذي كان به نغمةٌ خنوع تُحزن قلبي، عندها أدركت بأن رغبتي الوحيدة ألا أكون نسخة منها.

بعد دقائق عادت إلى غرفتي، ورمت ما كانـت تـصره في يـدها عـلى الأرض، وقالت في حزم:

- ارتدي هذا..

حدقت في القبعة الصوفية ألتي رمتها والدتي عند قدميّ ثـم هـززت رأسي قائلة:

- هذا لن ينفع فإلى متى سأرتدي هذه القبعة لأستر تمردي؟

بالرغم من نفاذ صبرها، إلا أنها حاولت ألا ترفع صوتها لكي لا يشعر والدي بشيء.

- وماذا تريدينني أن أفعل إذاً؟؟.. افعلي ما يحلو لكِ....فلا حل لديّ.

لم تكن قد ابتعدت سوى خطوة واحدة، ولكن بالرغم من ذلك كم كان شعور الوحدة شاسعاً لديّ، لمجرد أن تختبر وحدتك في مأزق لا منجد لك فيه.

في ذلك المأزق، أدركت بأني لم أكن يوماً تلك المتمردة الثائرة التي لا تهدأ، وبأن كلماتي التي أثقلت بها نفسي كي أثبت ولا أترنح، لم يكن لها أي ثقل في ميزان المواجهة، ولذا وقبل أن تبتعد خطوة أخرى تشبثت بذراعها، وهتفت بلوعة:

- لا تتخلي عني. فأنا وأنت نريد أن نعيش، فلا تنفقي سنيّ عمرك دون أن تستبقي لنفسك شيئاً.

حاولت أن أبث بها بعض الشجاعة لتساندني، ولكن صوتي لم يكن يصل إلى شاهق خوفها.

لذا أجابتني وهي تقفل الباب خلفها:

- أليس هذا ما أردتِ؟

انكسر الصوت مُجيباً:

- نعم أردت بأن أكون أنا.

المهمة

تركض بنا عجلات الحافلة نحو الحلم، ونحو مهمتي.....

وتتراقص بركابها على أنغامٍ صامتة، يترجمها الركـاب بـما وجـدوا في روحهم من نغم. متباطئةً كسولة..... إذعاناً وخنوعاً للمحتل.

سريعةً متواثبة... عندما تؤنبنا أمجادنا العربية، وبقايا نخوتنا.

مترنحةً عشوائية... كقراراتنا في وجه المحن.

أما ما كان في قلبي من نغم، فكان لنغمةٍ واحدة، قصيرة تـتردد عـلى إيقاعٍ منتظم.

سأنهي مهمتي... سأنهي مهمتي

كلما تردد ذلك الإيقاع في روحي ازدادت أصابعي انقباضاً على كيس الخيش الذي أحمله في حرص وإحكام، تتوقف الحافلة فجـأة، ليلتفـت السائق نحونا هامساً وهو يعدل كوفيته:

- نقطة تفتيش

أصابت الكلمة كل من في الحافلة بالشلل، كل الأصوات صمتت، وكل حركة تجمدت، حتى صوت الرضيع الذي كان يبكي في مؤخرة الحافلة هدأ.

أطل الرأس مع الخوذة، ليحصي بنظراته كل من في الحافلة، نظراته تتمعن في وجوهنا ولكنها تغفل عن براكين تفور، وجمرات غضب تتقد تحت الجلد، أزدرد لعاباً جف في حلقي وأنا أحاول إخفاء كيس الخيش تحت قدميّ، حتى لا تلمحه تلك العيون المستذئبة وأنا أهمس لنفسي:

- يهودي

في الذاكرة أستعيد صورتهم، عندما نزحنا نحو شرق النهر، نحو الغربة والمجهول.

كان ذلك في موسم الهزائم، يوم قطفوا ثمارنا، وحصدنا الندم، ثم جاء صوته ثقيلاً لزجاً بعبارة لم أفهمها..

ولكني وجدت وقع تلك الكلمات على من حولي، حين امتدت الأيدي إلى الجيوب، والحقائب والأكياس، لتخرج أوراقاً بيضاء، وخضراء، وصفراء، لتتجمع في يديه الآثمتين.

لم أتوقع أن يستقبلني الوطن عند حاجز تفتيش لينبش في الأوراق وفي الذكرى، ليبحث بين أوراقي عن صورة طفلٍ غادر الوطن في عمر النكسة، ليعود إليها عجوزاً في عمر الخيبة، ولكن الوطن لم يعرفني.

وأعاد إليّ أوراقي التي أتيت بها من الغربة، مع ختم بزرقة الألم، ولون الذكرى، وعادت الحافلة تركض بنا إلى أن توقفت، وفتحت أبوابها ليخرج منها الركاب.

احتضنت كيس الخيش، ونزلت بقدمين تتحسسان طريقهما وسط الزحام، وعن يميني لوحةٌ كتب عليها القدس ترحب بكم، وفي أسفلها خُطت عبارةٌ (عبرية) دنست قُدسية تلك العبارة.

القدس...... تلك الكلمةُ لم تعد كنغمة الناي تطربني، حرف القاف يجرح الحلق وينخز الفؤاد.

ولكن ما الذي سيؤلم روحك أكثر إذا أصبح جرحك في حجم وطن؟

في شوارع القدس الشرقية أسير ونحو مهمتي أحث الخطى، أمر في أسواق المدينة، تحيط بي دكاكين الباعة على جانبي الطريق ببضائعها المكدسة خلف الواجهات الزجاجية، والمعلقة على الأبواب، من حِلي، وأحذية (الشباشب)، و(القباقيب)، وحلوى (السمسمية)

و(الكعكبان)، والمنحوتات الخشبية، والمسابح الملونة، كلها في دهليز واحد ينبض باللون، والرائحة، والصوت، والأنفاس المزدحمة.

ولكن لا شيء يستوقفني في تلك البضائع، فهنالك شعورٌ يؤلم الروح، بأن كل ما حولك فقد بهجته، ولم يعد يثير الحنين لديك، رائحة الأطعمة والشواء الآتية من المطاعم القريبة لا تثير شهيتك، والألوان فقدت تألقها، وصوت الباعة فيه كثير من الخواء الحزين، يحكي لك قصصاً عن تهويد سلطة الاحتلال لهم، من خلال ظلم الضرائب، واعتقالاتٍ بتهمة تمويل المقاومة، وتقديم بياناتٍ ضريبيّة مزورة.

أما الجدران فتستوقفك بعبارات عديدة، ولكن عبارة واحدة أيقظت فيّ الإحساس، ولم أستطع أن أغمض عيون القلب عنها (عائدون)، كُتبت بفحمٍ أسود ليغيظ كل جبار يحمل السلاح بعنجهية، ويدوس ترابها الندي بحذائه العسكري، وليذكر كل شخص مثلي بأنه ابن تلك الأرض، وفي الجو مقاطع من أغنية شاردة، أتت إليّ كنسمة أنعشت الروح:

إني اخترتك يا وطني حباً وعلانية.

احتضنت كيس الخيش لأطمئن على السر الذي في جوفه. فلا وقت للعلانية، حتى الحبّ أصبح بالخفية، أحلامنا نخفيها، وحقنا نطلبه خفية.

***

لقد اقتربت من هدفي، فعلى طريق حي وادي الجوز أوصلتني قدماي إلى حسبه سوق الخضار وأي إهانة للذكرى وجدت.

أين رائحة الأرض والبيارات، وأغاني الرجال بالمواويل والسامر؟ وهم ينزلون صناديق معبأة بالخير، والفرح، وضحكات الأرض.

كيف تتبدل الأحوال؟؟

وجوهٌ مكفهرة، ونفاياتٌ مكومةٌ عند الأعمدة، ورائحةٌ عفنة تعبق في الجو، وحشرات تتسابق في أزقة السوق.

لم أكن يوماً ذلك العجوز الفضولي الذي يلاحق المارة بأسئلته ولكنني وقفت في منتصف الطريق أستنجد المارة بأجوبة لا تسد رمق أسئلتي، كل ما حصلت عليه فتات أجوبة.

- قوات الاحتلال منعت عمال النظافة من الوصول إلى السوق... قطعوا الكهرباء عنا.... والماء أيضاً.

- لماذا؟؟

- لنرحل

- لماذا؟؟

– ليبنوا مكاننا مشروع حديقتهم الأثرية.. وفندقاً من تسعة طوابق.

وأنتم أين تذهبون؟؟

- لا يهم... فلقد قفز اللص إلى منصة الحكم، وأصدر الحكم بكل غطرسة وغرور.

بكل القهر ووجع الغربة تأبطتُ كيس الخيش واستنجدتهم:

- لا ترحلوا.

- من أنت؟؟

- أنا التائه... أنا الغريب... أنا العائد.

- ونحن؟

- أنتم أهلي... أنتم الصامدون.

ليت كلماتي تمنعهم من الرحيل، ليتها تؤازرهم...

ليتها أخرجت اليهود من منزلنا، ولم تدعني أعرف معنى الشتات، وألغت اسم الغربة من أوراقي..... ليتها.

أكملت سيري نحو مهمتي، تلك المهمة التي في أولها والعمر في آخره.

صعدت عدة درجات حجرية متآكلة، بيد تقبض على كيس الخيش، وأخرى كورتها وضغطت بها على أسفل ظهري، علها تخفف من ألمه وتشنجه، والثغر يلهث بالدعاء:

- يا رب اتعين.

كل درجةٍ أصعدها تزيد من آلام ظهري مع ثقل كيس الخيش، تراودني فكرة التخلي عنه، فتنتفض الإرادة في قلبي صارخةً:

- مستحيل.

تتعثر قدماي فأسقط على ركبتيّ، فأضم كيس الخيش في أحضاني، وأنتحب.

إحساسي مثل طير يرفرف فزعاً داخل صدري، ولكن لا خيار لدي سوى بمواصلة الصعود، ولكن نظرة واحدة إلى المدينة من شاهق ذلك الارتفاع، جعلت روحي تتزلزل فرحاً لدى رؤية قبة المسجد الأقصى من ذلك الارتفاع... لامعة ذهبية، إنّ الشوق لها طفلٌ يتشبث بطرف ثوبك ويشدك أينما أراد وأنت لا تملك رفض طلبه، أو تجاهل إلحاحه، فهي محبوبة لي معها موعد مهما علت أسوارها، ومهما تربص بي اليهود عند بواباتها، سأمشي في ساحاتها، وأسجد فوق ترابها، فهيكلهم

المزعوم لا يعنيني، ونقاط تفتيشهم العديدةُ لا تثنيني... فلي موعدٌ معها.

ولكن فلأُنهِ مهمتي.

صعدت ما بقي من درجاتٍ حجرية لأقف أمام بوابةٍ حديدية شامخة في أحزانها، وموصدة على فجائعها.

دفعت بوابتها بيدٍ ترتعش وتقدمت، وعند شواهد القبور بحثت عن اسمها- الحاجة عائشة - توقف القلب عند الشاهد قبل أن تتوقف الخطوات.

هاأنذا قد عدت بعد سنيّ الغربة والانكسار لأجثو عند قبرها هامساً:

- كيفك يمه؟

مجرد خبر صغير في الصفحات الداخلية لإحدى الجرائد أيقظ في داخلي الألم والذكرى، ليعود بي للوطن، خبر يقول بأن بعض المستوطنين اليهود قاموا بعمليات تخريب بمقبرة (مأمن الله) بمدينة القدس، حيث قاموا بهدم بعض القبور، واقتلاع شجيرات الزيتون بجوار شواهد القبور.

ما زالت مطبوعةً في ذاكرتي بوقفتها الشامخة وهي تخبط صدرها بجزعٍ قائلة:

- يا قطيعتي يا ظيم حالي... كيف أترك الأرض وأنا الي زرعت شجرها؟

كيف لهم أن يهينوا ذكراها؟

كيف لهم أن يقتلعوا شجرتها؟

تناولت كيس الخيش، وفتحته، وأخرجت شجرة زيتونٍ من داخله، ورحت أحفر الأرض بجوار قبرها، وغرست الشجرة فيها وأنا أهمس بألم:

- لا تحزني... فهذه شجرةٌ أخرى بدل التي اقتلعت، فأنا أعلم حبكِ لشجرات الزيتون وعشقكِ لها، فأنا ما زلتُ لا أذكرك سوى وأنت جالسةٌ تحتها في آخر ساعات النهار... لا تحزني لأني أحسدكِ فلقد أحتضنكِ تراب هذا الوطن، لأنكِ أمنتِ بحقكِ فيه، أما أنا فسأبقى الغريب الذي لن يواريه تراب وطن، ولن يدفئ تراب الغربةِ مرقدي.

احتضنتُ شجرة الزيتون، ورحت أبكي وفي داخلي صوتٌ وددتُ لو كان يسمع ليقول لأهل تلك الأرض:

آمنوا بحقكم... فلكم الأرض، ولكم الحق.

الهيبة

على نفس الرصيف تأخذه كل يوم خطواته ذهاباً وإياباً، يعلم وجهته وليس لديه خيار، فلا شيء يتغير، خطواته المتعثرة، انحناءته التي تزيد آلام ظهره المزمنة، فيعدل حطته، ويهرش ما بقي على رأسه من شُعيرات بيضاء، ويواصل سيره بينها تتصارع في رأسه العبارات.

- أنت تتلكأ في عملك... أنا أعلم ذلك... أنا أراقبك.

- أنا مجرد عجوز، ولا طاقة لي.

- ليس مطلوباً منك نصح الزبائن، وذكر عيوب البضائع.. أنت هنا لتبيع فقط.

- كنت أحاول المساعدة فقط.

- لا تعطِ النصائح للموظفين، ولا تملِ عليهم كيف يتصرفون.. فأنا المدير هنا فقط.

- ....

في خضم تلك العبارات الزاجرة، يأتي صوت عجوزه راجياً:

- خلينا في أكل عيشنا.

يأخذ نفساً عميقاً، ويتنهد بمرارة، ويحاول أن يبحث في داخله عن الأحلام المتكسرة، والمشاعر المبعثرة، يحاول التمسك بشيء، رغم تراخي كل شيء من حوله.

الهيبة..... آخر حلم يحاول الاتكاء عليه، يحمله الحلم إلى الطفولة، عندما كان طفلاً يتشبث بطرف ثوب جده، ذلك الجد بنظراته الصارمة الصامتة، ولحيته البيضاء القصيرة، وقامته الشامخة، ووقاره الصامت، ما زال يتذكر كيف كان يتحلق الرجال حوله للحصول على المشورة.

كان يحب في جده أسلوبه في الحديث، ويتعجب من قدرته على إيجاد الحلول، وإيجاد الكلمات المناسبة المؤثرة لكل جملة، فالكلمات تنساب بلا تكلف أو جهد، فالكلمة المناسبة موجودة دائماً، تلك الكلمة التي تكون أشبه بمفتاح، لا تنغلق في وجهها الصدور، وتجد طريقها إلى القلوب والعقول.

حيث كان جده يتمتع بالثقة بالنفس، وبالعناد المطلق، حتى فرض نفسه على كل من حوله، لتصبح لديه كلمات نهائية، لا يسبقها تمهيد، ولا يعقبها تبرير.

كان ذلك هو الجد الذي راقبه بانبهار طفولي، وبحلم يكاد يكون بالنسبة إليه واقعاً بأنه سيكون مثل جده، ولكن بعد رحيل العمر، أدرك أكثر بأنه لم يستطع حتى أن يلامس ذلك الحلم.

فصوب نظره إلى الشارع آملاً بأن تستوقف شعيراته البيضاء وانحناءة ظهره، وتجاعيد وجهه، وارتعاش يديه من شدة التعب، إحدى السيارات لتسمح له بالعبور ولكنه لم يجد لذلك أي صدى لدى سائقي تلك السيارات.

فجأة.. توقفت إحدى السيارات، لتسمح لفتاة ذات كعبٍ عالٍ بالمرور، رغم شعور المهانة الذي لسع روحه، إلا أنه جر قدميه بتثاقل خلف ذلك الكعب الذي راح يطقطق بدلال متجهاً إلى الرصيف الآخر.

وعلى الرصيف الآخر وجد نفسه بين جماهير تجمهرت، يجمعها الفضول، وحب المشاهدة خلف نية الإصلاح، وتهدئة النفوس، في وسط تلك الجماهير، وقفت سيارة شرطة يميزها لونها الأبيض،

وخطوطها الزرقاء، يتكئ على زجاج نافذتها أحد رجال الشرطة، وقد انتشى بنجوم كتفيه العديدة وأمال قبعته إمعاناً بالغطرسة، وقد حمل في يده مكبراً للصوت، أخذ يصيح من خلاله موجهاً كلامه لشاب يقف على حافة سطح البناية المقابل:

- انزل.. لا تجعلني أضطر للصعود إليك.

أوحت العبارة الأخيرة بالتهديد، مما جعل الشاب يتقدم أكثر نحو الحافة صارخاً بيأس:

- إذا صعد أحدكم.. سأرمي بنفسي.

أثار التهديد الأخير بلبلة شديدة في صفوف المتجمهرين.

حيث كشفت تلك البلبلة، والأحاديث الجانبية عن تفاصيل البداية.

مجرد شاب يفترش الأرض ببضائع ينادي عليها عند هوامش السوق... الشرطة تقبض عليه، وتصادر البضائع... من خلال الزحام يفر هارباً.. الهروب يزيد الأمر تعقيداً.... يحاول الاختباء.. الشرطة تحاصر المكان.. وتنتهي البداية بالشاب يقف مذعوراً على سطح إحدى البنايات، ويهدد بالانتحار.

يعود صوت الشاب مذعوراً، ويوجه حديثه للشرطي:

- إذا لم تبتعدوا سوف أقفز.. سأرمي بنفسي.. أنا لن أنزل.. ارحلوا من هنا.

زأر صوت الشرطي عبر مكبر الصوت:

- هيا ارمِ بنفسك، لو كنت تريد الانتحار، لفعلت، إننا نقف تحت وهج الشمس منذ نصف ساعة في انتظارك.

ذلك الشرطي لم يكن رجلاً يقتني الصبر والحكمة في إدارة الأمور، فالحكمة ليست لمن في عمره.

ترتفع الأيدي بالهواتف النقالة لتصور الحدث، كأن ذلك الشاب بعجزه، وقلة حيلته، وسطوة الظروف عليه، أصبح بطلاً لفلم (دراميّ).

تنسحب سيارة الشرطة من المكان، وقبل أن تغادر، ترتفع سبابة الشرطي مهددة.

- سأحضرك.

ويشد على قبضته، ثم يغادر المكان.

مغادرة الشرطة تقلل من توتر الموقف، وتعطي الشاب فرصة للنزول، ولكن الشاب يبقى متسمراً في مكانه، فأمام كل تلك العيون المترقبة هنالك حرج بالنزول، وكأنه مجرد لص، أو مهرج قدم عرضاً

لذلك الجمهور ليستدر عطفه ليتمكن من الفرار.. في الموقف شيء من المهانة وخدش للكبرياء.

وقوفه يطول والجماهير تتململ تحت أشعة الشمس، وهي لن تغادر المكان قبل انتهاء العرض، فكل شيء على المحك، الأمر بحاجة إلى تدخل، وحكمة، لو كان جده لا يزال على قيد الحياة وموجوداً لفعل شيئاً، تتناثر حوله بعض العبارات اللزجة الواهية التي تزيد الموقف سوءاً.

- إن الحياة لا تزال أمامك.

- لقد غادرت الشرطة المكان تستطيع النزول.

- لا تخف لقد رحلوا.

- ماذا تنتظر تستطيع الهروب.

في صغره كان يجد نفسه بطلاً لمجرد إنزاله لقطة عن شجرة، فكيف وقد أصبح الدور أكبر بإنزال ذلك الشاب من شاهق ورطته.

في داخله صوت أخرسه منذ سنين يحاول أن يفلت من بين شفتيه.

يحاول صوت عجوزه أن يلجمه:

- خلينا في أكل عيشنا.

ولكن الصوت في داخله أصبح كمن ربى وحشاً عجز عن السيطرة عليه.

يغمض عينيه، ويصرخ:

- واجه الحياة وكن جديراً بأن تعيش، وإلا ارمِ بنفسك، ولكن عليك أن تعلم بأنك لن تنال الرحمة، ولن تنعم بالمغفرة، فلا تقف هكذا تعاني الحيرة وفي صميم روحك تعلم الصواب، ولا تتمسك بموقفك لمجرد منطق الكبرياء.

وجدت تلك العبارات الدافئة الطريق لصقيع روح ذلك الشاب، حيث أغرقت عيناه بالدموع وهو يحدق بوجه ذلك العجوز الأشيب، وكذلك أعين تلك الجماهير التي أطل منها التقدير والإجلال لذلك العجوز صاحب الكلمات الدافئة التي تولد من الألم.

كان الشاب بحاجة إلى كلمة أخيره لكي ينزل وذلك بعد أن ارتخت أصابعه التي كانت تقبض بإصرار على حافة السطح، وتلاشى الألم والذعر من عينيه، وابتعد خطوتين عن الحافة.

وجاءت الكلمة الأخيرة:

- انزل يا ابني.. الله يرضى عليك.

نطقها بصوت أبوي دافئ وحنون.

ابتسم الشاب لتلك العبارة التي جعلت الشوق يُجن بداخله لرجل أراده أن يكون رجلاً في وجه المصاعب، وأن ينهض من كبواته ليس على رؤوس الأصابع إنما بأقدام ثابتة كخطوات عسكر.

لقد ذكره ذلك العجوز بوالده.

فابتسم الشاب، وهز رأسه قائلاً:

- حسناً.. يا أبي

ونزل.

عند باب العمارة ظهر وجه الشاب، عندها ابتسم له ولكن عدة رجال انفصلوا عن الحشد ليتحلقوا حول الشاب، بينما لوى أحد الرجال ذراع الشاب خلف ظهره وهو يهمس له.

- هل ظننت حقاً بأننا سندعك تفلت.

أدرك عندها العجوز بأن الحياة لا بد أن تتربص به حتى في أجمل لحظات انتصاره، لذا أكمل سيره نحو عمله، ولكن هذه المرة راح الحلم داخله يكبر أكثر، وأكثر.

بين عالمين

بين الحين والآخر أطل من تلك النافـذة باحثـةً عـنهم، عـن سـكان مملكتي، من خلال تلك النافذة التي تفصل عالمي الحقيقي الواقعي عن ذلك العالم الذي أذهب إليه بأحلامي وخيالي، وأكون به الآمرة الناهية، عالمي واسع فيه متسع للجميع، وساكنوه كُثر، أصـدقائي، زملائـي، أهلي، وكل من أعرفهم، هنا العالم لا تربطه أي قيود، ولا يتوقف عنـد حواجز الزمان والمكان، لـذا تأملـت بمملكتـي طريـق المـاضي حيـث كانت أطياف الماضي تتجول.

توقفت بنظري عند جدي الذي توفي منذ سنين، كان لا يـزال يتكـئ على عصاه. فمررت مُسرعةً من جواره، وتحاشيت النظر في عينيه اللتين تئنان بالعتاب، وعلى رصيف الماضي وجدت نفسي لا أزال طفلة بوجه أسمر، وعينين داكنتين، وجدائل طويلة، وقد أخذت أجري في الشارع

بتهور فاردةً ذراعيّ، عندما ظننت يوماً بأني فراشة سحرية عن الهموم منتئية، وبالأحلام ندية، وبجناحيها اللذين لن يتكسرا ستلون العمر والأحلام.

كنت في بداية الحلم، ذلك الحلم الذي كان أثقل من أن أحمله حتى نهاية العمر، عندها اقتربت من تلك الطفلة لأن القلب لا يزال يقف على أطلال الماضي، ويحن لسذاجة الطفولة وبساطتها، وما زالت خطواتي المترددة التي تتعثر بحيرتها تحن لجنون قفزات الطفولة.

ابتسمت لطيفي وهمست:

- مرحباً.

عبست الطفلة في وجهي، وأكملت لعبها دون أن تأبه لوجودي.

كيف نسيت أني كنت أخشى الغرباء، وأحذر توددهم.

ثم أكملت سيري إلى أن وصلت إلى أحد مدن مملكتي، على بوابتها كان هنالك نصب متآكل (لكيوبيد) حيث كان يقف حزيناً بلا سهام، أو أجنحة، ومقيد اليدين.. نعم مقيد هكذا حكمت عليه بأن يجرب سوار العبودية الذي ألبسه لكل حزينٍ جريح ذاق طعم سهامه.

وفي طريقي إلى المدينة، توقفت عند سجنها، وحدقت بالعيون المتوسلة التي تطلب الرحمة، لكنني قلت لقلبي:

يا قلبي لا تغفر لهم.. ربما إلى أن يفتر غضبي.

وتوقفت عند عينيه، وعلى عكس ما كان بالعالم الآخر، حزيناً نادماً طالباً للرحمة، كان كمن سلم نفسه لقدر أهوج، فالآن أين ترف هندامه، ورقة كذب عباراته؟! فاليوم أقف أمامه بتحدٍ فلم يعد القلب يركع لإرادته، فلقد تجاوزت خيباته.

على كل حال لم يكن أول آلامي، ولم يكن أول من يكسر قلبي، بل كان أحد أحزاني، وقبل أن يضعف قلبي ابتعدت عن المكان، وأكملت طريقي إلى أن وصلت إليه، كان كما تركته في آخر زيارة إلى مملكتي، جالساً في مكانه، إحساسي يقول لي بأنه (هو)...

ولا تفسير لي لما يمكن أن يكون... هو...

ربما (هو) شخص لا آبه إن ضاع العمر لأجله، وقد يكون (هو) الشخص الذي سأراهن به على آخر فرصة.

وقد يكون (هو) شمعة العمر التي لن أعيش بعدها في ظلمة حواسي.

(هو)... ما أريده أن يكون، الكامن في جمال المجهول.. وليس مجرد لقب فارس الأحلام الذي استهلكته نساء الكون.

ومثل كل زيارة أتركه في مكانه، وأمضي في طريقي.

وصلت إلى زقاق خلفي مظلم، حيث لا أحد فيه سوى ذلك الطبيب بمعطفه الأبيض الطويل، حدقت فيه بكره وعداء.

اقتربت منه.

يدي تقبض على شيء ما.

... إنها سكين.

إذاً لا شيء ينقصني.

كل شيء يتواطأ معي لأُتم جريمتي.

المكان مظلم ولا أحد فيه.

والسكين في يدي تلمع بالانتقام.

وهو لن يقاوم فأنا أمتلك من الكره ما يكفي لأغرز السكين في قلبه، فما زالت كلماته تسكن رأسي.

- لقد فعلنا كل ما في وسعنا، ولكنها مشيئة الله.
- كيف لم نعلم بمرضه؟!
- التحاليل لم تكن كافية.
- أنت لم تطلب أي تحاليل تخص هذا المرض.
- لم نكن لنكتشف الأمر بسرعة.

- لقد أخطأت في التشخيص، وتمسكت برأيك بأنه لن يحتاج إلى عملية.

- لم نتوقع أن تتدهور صحته بتلك السرعة.

- لقد كان ضحية إهمالكم.

ثم تنهد مواسياً.

- نحن آسفون.

وتركني أتعذب بحسرتي.

بكل الغِل الذي يسكن قلبي رفعت السكين لكي أطعنه، ولكن يدي لا تتحرك، ولا تستجيب لإرادتي، حاولت مرةً أخرى، ولكنها بقيت معلقة في الهواء.

ما أصعب القتل حتى ولو ثار الانتقام في القلب ! أمام تخاذلي رميت السكين من يدي لأني وإن كنت أمتلك السلطة في عالمي، و حتى إن أودعت جثته في طيات مقابر النسيان، فالقلب لا يزال يعرف كيف يواجه حقده، وإرادتي تتخطى زلاتهم، حتى لو واجهت عتاب جدي عند كل منعطف في عالمي.

ثم جررت قدميّ نحو شاطئ البحر، في الطريق وجوه جديدة تصادفني لا أحد منها يبتسم لي، والطريق بات أكثر تعرجاً من ذي

قبل، حتى إني لم أعد أعرف المكان، وأكاد أتوه في دروبه... كأني لست سوى غريبة.

فبالرغم من اتساع هذا العالم وسكانه الذين يتزايدون يوماً بعد يوم، يضيق بي هذا العالم أحياناً، فلا أمل يلوح في سمائي والروح معذبةٌ على شطآني، وتلك البقعة السوداء على يسار سمائي تزداد ظلاماً، فهي في موقع القلب تماماً....

***

قفزت هلعاً من غفوتي، ونظرت بدهشة إلى زميلتي التي غرزت قلمها في خاصرتي، ولكنها أشارت بطرف سبابتها إلى باب المكتب حيث كان المدير يسده بجسده الضخم... أخذت نفساً عميقاً بانتظار تعليقه، ولكن نظراته المتمعنة ويديه المعقودتين على صدره، وهزته لرأسه البطيئة، كانت أبلغ من أي كلمة قد يتفوه بها في هذا الموقف.

ودون أي تعليق خرج من المكتب، وصفق الباب خلفه.

عندها علمت أن الجو في عالمي الآخر سيكون ماطراً بل عاصفاً، وبأن كل لوحة إعلان سيكتب عليها (تباً).

وبأن ذلك المتعجرف قد أصبح نزيلاً دائماً في سجنها.

بائع الحلول

انتهى اليوم كما توقعت تماماً، فلم يهز جيبي قرش واحد، ولم تشفع لي ابتسامتي العريضة، وكلامي المعسول، لـصاحب البيـت بتأجيـل دفـع الأجرة أسبوعاً آخر، لذا صفقت باب البيت خلفي بكل ما تختزن يدي من غل وغضب، فلم أدرك قبل اليوم بأن قلة الحيلة تتـسلل إلينـا مـن جميع مسام الحياة لتصبح لغتنا.

أخذت أقلب المحطات الفضائية، فمررت على عدة محطات تعـرض برامج جادة لضيوف يحترفون الوقار والرصانة، بثياب باهظة الـترف، فتستوقفك المشكلات والقضايا التي هم بصدد حلها، وبكـلام منمـق مدروس، وبلهجة مثقلة بالأهمية، أخذ كل واحد من الضيوف بتوزيع الاتهامات، فالكل ينفي المسؤولية عن هذا، ويلـصقها بـذاك، والحـوار

يحتدم ويهدأ بتلقائية، والأيدي تهتز محذرة من تفاقم المشكلات، إلى أن قام أحد الضيوف بتقديم عدة حلول لحل تلك المشاكل وهي:

وحدة الصف... وعي المواطن... الإحساس بالمسؤولية... المبادرة من جميع الجهات.

كمشاهد اندهشت لتلك الحلول، وبنشاط محموم أخذت أقلب القنوات الفضائية على غير هدى، حيث أخذت تتراءى أمامي على شاشة التلفاز المشكلات بأنواعها السياسة، البطالة، الفقر، والعقوبات الدولية، وبنفس الإصرار يعود الحل الأمثل حد الابتذال يرن في أذني.

وحدة الصف... وعي المواطن... الإحساس بالمسؤولية.... المبادرة من جميع الجهات.

فرحت كالمسحور أردد تلك الحلول بصوت هامس عميق كمن حصل على تعويذة سحرية، وقد أدركت في تلك اللحظة بأني وجدت حلاً لمشاكلي.

***

وقفت في منتصف السوق منتصباً، بعدما ثبتُّ عربتي الخشبية عند قارعة الطريق، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن أحشد طاقتي، وأطلقها في فضاء السوق على شكل موجات صوتية.

- حلول... حلول.. همك بيزول...والفرج ما بطول.

بعد هذا الهتاف الحماسي حدقت في وجهي كثيرٌ من العيون المتسائلة والمتعجبة، واشرأبت الأعناق لتلقي نظرة على ما تحمله العربة من بضائع، ولم تخف خيبة الأمل عن الوجوه، عندما لمحوا سطح العربة الخشبي الخالي، حيث ظهر سطحها ذو الدهان الأخضر المقشر أوضح ما يكون، عندها أعدت الهتاف مرة أخرى، وحاولت أن أجعله هذه المرة أكثر ثقة وإقناعاً، علّه يجذب المارة الذين رأوا في العربة الفارغة دليلاً قاطعاً على الدجل، بينما بالنسبة لي كانت ديكوراً لمهنتي الجديدة.

حدقت بالعيون التي تُحيط بي، خلف المآقي مشاكل وهموم تأبى أن تخرج من عتمة الصدور، لتعرضها على شخصٍ يدعي بأنه يمتلك شعاع أمل وبعض الحلول.

بعد عدة محاولات، اقترب رجلٌ من العربة، وقد بدا عليه التردد حيث راح يفرك قبضتيه بشدة، وعيناه زائغتان كمن يعاني ألماً في معدته، عندها أدركت بأن هذا الرجل يجد حرجاً بشرح مشكلته فهززت رأسي متفهماً، وأنا أقول مطمئناً:

- لا بأس.. لا داعي لأن تشرح مشكلتك.. فقط ادفع.

ومددت يدي للرجل، وقد فتحت أصابعي الخمسة بقوة قائلاً:

- هات.

أسرع الرجل يناولني ورقة نقدية وهو ينظر إلي مبهوراً، عندها وضعت الورقة النقدية في جيبي وأنا أبتسم، وربت فوق جيبي برضاً شديد، ثم مددت يدي إلى جيب آخر، وأخرجت منه ورقة، وناولتها للرجل فاختطفها مني بلهفة، وفتحها على عجل، ثم أخذت مقلتاه تتدحرجان فوق أسطر الورقة من اليمين إلى اليسار، ثم فغر فاه ببلاهة قائلاً:

- لست أفهم؟.. كيف ستقبل زوجتي بالعودة للمنزل؟ وكيف سأدفع أقساط الثلاجة؟.. من خلال وحدة الصف، ووعي المواطن، والإحساس بالمسؤولية، والمبادرة من جميع الجهات...

فلوحت بإصبعي في وجهه قائلاً:

- غبي.. إن تلك الحلول قادرة على حل أكبر المشكلات، هذه الحلول ستحل مشكلات العالم فكيف لن تحل مشكلتك مع زوجتك؟!

ثم أشرت إلى جيبي حيث استقرت الورقة النقدية، وقلت بثقة:

- هذه الحلول حلت مشكلتي، فاليوم سأدفع أجرة منزلي.

ثم دفعت العربة أمامي وأنا أهتف:

- حلول.. حلول... من قال أن المشاكل ليس لها حلول

تاركاً خلفي الرجل يحدق بالحلول دون أن يجد الحل.

سرقت خصلة شعري

تحرك لهب الشمعة.

نعم أنا متأكدة من ذلك.

لقد تراقص لهيبها.

عندها تراقص القلب ذعراً، واحتبست عبارات الاستنجاد في حلقي.

ومن أين آتي بالجرأة لكي ألتفت خلفي وأواجه ما يتربص بي؟!

إحساسي يزداد به يقيناً فهو خلفي تماماً حيث راح ظلّه ينسكب أمامي.

ثم لمحت انعكاس تلك الأداة المعدنية تلمع بجوار عنقي، بالرغم من عدم شعوري ببرودتها لدى احتكاكها بعنقي، إلا أني شعرت بجسدي ينتفض هولاً، فلقد كانت تجتز خصلة شعر من رأسي.

ثم ابتعد الظل بهدوء بعد أن حصل على غنيمة.

عندما شعرت بابتعاده مسافة كافية التفت خلفي ببطء وأنا أتحسس شعري بتوجس.

كانت المفاجأة، فتاة ترتدي ثوباً أزرق وتتمايل سعيدة.

كانت تلك الفتاة... صديقتي.

لماذا هي هنا؟

ولماذا تريد خصلة شعري؟

ولماذا هي سعيدة بخصلة الشعر هذه؟

تزاحمت الأسئلة في رأسي دون إجابة.

كانت أعز صديقاتي وثقتي بها تصل حدود السماء، ولكنني شعرت بتلك السماء تتلبد بغيوم الشك، لذا تبعتها خلسة دون أن تشعر بوجودي، إلى أن وصلت إلى غرفة تشبه غرفتي، وفتحت خزانة تشبه خزانتي، وأخرجت منها حقيبة تشبه حقيبتي، ثم راحت تفرغ محتويات تلك الحقيبة على السرير.

عندها شعرت بمتعة التلصص على الآخرين، في غفلة منهم، فإذا بها تخرج من الحقيبة زجاجة عطري، ومرآتي، وبعض الحلي التي أهداني إياها زوجي في عدة مناسبات.

لم أكن أدرك بعد أنها بدأت تتسكع في عالمي وتستحوذ عليه...
بينما ظللت واقفةً مكاني... أراقب ببساطة.

***

تبدد ذلك الحلم من ذاكرتي وأنا أحدق في عينيها الذابلتين، ثم انحنيت لألتقط الكأس الفارغة من جوار يدها التي استرخت بمحاذاة جسدها الممد على الارض، ووضعته جانباً، لأقف أمامها بتحدٍ وقد ثبت يدي على خاصرتي ورفعت ذقني عالياً مُعلنة التحدي. لأجعل آخر ما تراه في حياتها لحظة انتصاري عليها.

بحثت عن انعكاس صورتي في عينيها ولكن دمعة كبيرة تعلقت برموشها جعلت صورتي تهتز وتضطرب. فجثوت بجوار جسدها لترى عينيَّ الغاضبتين والحقد الذي يتأجج بهما، أردت أن تدرك ثمن خيانتها لي وكم كان قلبي يطفح غِلاً.

لمحت في عينيها توسلاً حزيناً واختلجت شفتاها بكلماتٍ تأبى البوح.

اتكأتُ بيدي على الأرض لأدفع بجسدي نحوها أكثر لأتمكن من سماعها ولكن شظيةً زجاجية انغرزت في باطن يدي، مما جعلني

أسحبها بسرعة لأضغط بإبهامي على مكان الجرح، لأوقف الدماء التي سالت من يدي و أنا أتأمل الأرض التي تناثرت شظايا الزجاج المتكسر عليها.

كان المكان كمن حلت به عاصفة، كل شيء انقلب على الأرض، كل إطارات الصور وقطع الزينة التي كانت على الرفوف تناثرت في كل مكان، واستقرت شظاياها في أرجاء الحجرة.

كانت تصرخ بألم وهي تحاول التشبث بأي شيء ينقذها، و تتمسك بكل ما يصل إلى يدها، بينما ظل جسدها ينتفض برقصة الموت المجنونة إلى أن هدأ واسترخى، ثم تأملت الكأس الزجاجية التي وضعتها جانباً.

كانت تقف بصمتٍ شامت بين كل تلك الشظايا بعد أن قدمت المكيدة لها بتلك الكأس، ثم ابتعدت عن ذلك الجسد بعد أن انتهى مفعول السُمّ.

فالآن لن ألوم نفسي لتجاهلي لناقوس الخطر الذي راح يدق متوسلاً أن أنقذ حياتي من امرأة تسرق خصلة شعر من رأسي وتلف حبالها حول زوجي.

لا زلت أذكر كيف راقبتهم بصمت وهم يدخلون بيتي ويستبيحون أرجاءه، ويضعون أشياءها بجوار أشيائي، حيث راح ضجيجهم يملأ منزلي وهم يؤثثون زواياه لامرأة ليست أنا.

أما هي فراحت تغرز معولها في رمال الغيرة وتحفر.

أما أنا فسأضع خيانتها لي في تلك الحفرة وأهيل الرمال فوقها

فلا زلت سيدة هذا المنزل.

الفهـــــرس

إيمان محمود النجار

Eman18_10@yahoo.com

أنا في الأربعين

إيمان النجار

انحنيت لألتقط الكأس الفارغة من جوار يدها التي استرخت بمحاذاة جسدها الممد على الارض . ووضعته جانباً . لأقف امامها بتحدٍ وقد ثبت يدي على خاصرتي ورفعت ذقني عاليا معلنةً التحدي . لأجعل آخر ما تراه في حياتها لحظة انتصاري عليها.

بحثت عن انعكاس صورتي في عينيها ولكن دمعة كبيرة تعلقت برموشها جعلت صورتي تهتز تضطرب فجثوت بجوار جسدها لترى عينيَ الغاضبتين والحقد الذي يتأجج بهما. أردت ان تدرك ثمن خيانتها لي وكم كان قلبي يطفح غلاً.



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٠٨٨٥+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan • dar_fadaat@yahoo.com

